

سقوط نظام مبارك وانتفاضة شعب كردستان

أيوب بارزاني 12.02.2011

لقد كان لثورة الشعب التونسي صدى كبيراً في جميع بلدان الشرق الأوسط، ولم تمضي سوى أيام حتى إندلعت الثورة المصرية وقد شارك فيها الملايين من أبناء الشعب المصري بالنزول الى شوارع مدن مصر الرئيسية وبالأخص في ميدان التحرير بالقاهرة. وأنتهى عهد مبارك الدكتاتوري خلال 17 يوماً من بدء الإنتفاضة الشعبية في 25 يناير الى 11 شباط، لقد انفجر الغضب الشعبي الذي تراكم لعقود طويلة وبقوة مما أدخل الرعب في قلوب طغاة الشرق الأوسط والرهط المحيط بهم، والعوائل الكوردية الحاكمة الحاكمة.

في الخمسينات والستينات كان الجيش يشكل عنصر التغيير في بلدان الشرق الأوسط، ولم تنتج الأنظمة التي ولدت في أعقاب إنقلابات عسكرية غير أنظمة دكتاتورية فاسدة لم تراعي مطامح وتطلعات الشعوب في الرخاء الاقتصادي والعدالة الاجتماعية والتقدم الحضاري.

ثم تم ترويض الجيوش من قبل الأنظمة بدعم من الخارج، فأصبحت القوات المسلحة في خدمة الدكتاتور وحارساً لنظامه، كما كان الحال في تونس ومصر والعراق. وبعد أكثر من ثلاث عقود من تهميش دور الشعوب وإذلالها، بدأ عصر الثورات الشعبية في عدد من بلدان الشرق الأوسط منذ بداية العام الحالي: تونس ومصر الآن وغداً ربما اليمن والجزائر وبلدان أخرى، لا يستثنى منها كردستان الفدرالية.

هناك عديد من نقاط التشابه بين الأنظمة التي تشهد الفوران والسخط الشعبي، فكوردستان في ظل الحكم العائلي في أربيل، يشبه النظام العائلي التونسي فيما يخص احتكار عائلة واحدة مع الأصهار والأولاد والأحوال وأبناء العمومة ومقربيهما للحياة الاقتصادية والمالية والعقود التجارية وتمليك الأراضي والتصرف بالأموال العامة كملك شخصي وسيطرتها على القوات المسلحة وأجهزة الأمن القمعية. كما أن هناك تشابه في تزوير الانتخابات وتفشي الفساد والرشوة والمحسوبية وإفساد المجتمع. كذلك هناك تشابه في طول البقاء في السلطة بشكل غير مشروع وفوق القانون.

إنقض الشعب الكوردي بعد هزيمة العراق في حرب الكويت، وتمكن من تحرير معظم كردستان الجنوب، لكن لم يكن لهذه الإنتفاضة قيادة داخلية، فاستغل القادة القدامى الفراغ القيادي الداخلي للانتفاضة فعادوا من وراء الحدود واستغلوا الثورة الشعبية الكوردية فأحكموها سيطرتهم عليها أولاً ثم أقموا الشعب الكوردي في حرب داخلية مشينة. دامت الى عام 1998.

كانت الأقدار مجحفة بحق الشعب الكوردي، فلم يتمكن طوال تاريخه الحديث، وذلك بسبب هيمنة حكومات بغدا على مصائره، لم يتمكن من التفرغ لطغاته المحليين، فقد بذل جميع طاقاته في محاربة التسلط والظلم الخارجي.

يبدو أن الوضع الحالي يسمح للجماهير الكوردستانية بتوجيه اهتمامه نحو السلطة الكوردية التي أقامها قادة الاحزاب في اربيل، عاصمة جنوب كردستان، وذلك بفضل التغييرات الدولية، حيث يتمتع اقليم كردستان بنوع من الاستقلالية المحدودة وأكثر استقراراً من مناطق بغداد والموصل وله ميزانيته. إن هذا الوضع المتميز لكوردستان، ومنذ عام 1991 كان بمثابة تجربة تاريخية هامة لمهية القادة الكورد، إذ

أماط المسؤولون الكورد القناع عن وجوههم، فأثبتوا أنهم لا يقلون طمعاً وجشعاً و عنفاً وتزويراً وكذباً عن بقية طغاة الشرق الأوسط.

ومن هنا أجيح السخط الشعبي من خانقين الى زاخوا عبر كركوك والسليمانية وأربيل ودهوك، ماراً بمختلف الأفضية والنواحي والقرى في كافة أراضي كوردستان – عراق. إن بوادر السخط الشعبي هي أكثر بروزاً في السليمانية نظراً لتوفر مجال أوسع من الحريات، ونفس السخط الشعبي في المناطق التي يسيطر عليه رئيس حدك الوراثي مشتعل بالغضب، لكن بشكل خفي نظراً لحالة القمع والكبت المزمنة والسائدة في مناطق هي تحت نفوذ العائلة الحاكمة في أربيل ودهوك.

لابد من الأخذ في الاعتبار عاملين أساسيين وذلك في حالة تحرك الجماهير الكوردستانية: العامل الخارجي والعامل الداخلي، ففي كلا الحالتين توجد مخاطر: ففي الحالة الأولى ينبغي الحذر الشديد من التدخلات والخطط الإقليمية، إذ من المهم أن لايسمح للمندسين المحليين المؤتمرين بأوامر الخارج أن يحركوا الجماهير ويوجهونها ويضعون لها جدول أعمال، كيف ومتى ومن.

ويتمثل العامل الداخلي في تعميم الانتفاضة بحيث تشمل جميع أجزاء كوردستان، ويتم خلال جهود تعبوية لتوحيد الشعب الكوردي في كل مكان، فتتوحد قوى الريف مع المدينة، والعمل على انحياس قوات البيشمركة والأمن الى مطالب الجماهير. ولا ينبغي تجاهل خطورة اقتطاف ثمار النصر من قبل "القادة الكورد الكلاسيكيين" أو من "معارضة انتهازية" تتربص بالحركة لتلبس لبوسها وتتبنى خطابها وشعاراتها ثم تنحرف بها وتقودها الى حيث مصالحها الخاصة. لقد حصل هذا مراراً لانتفاضات الشعب الكوردي في تاريخه القريب، وبهذا أخفق الجمهور المنتفض في تجديد قيادته بعناصر كفوءة ونزاهة بعيدة عن الحزازات الحزبية الضيقة ورواسب الاقتتال الداخلي. ومن الأفضل قبل البدء بأي عمل التحوط لهذين العنصرين الخطيرين على مستقبل أية انتفاضة شعبية كوردستانية.

ومن الضروري مدّ القنوات والجسور نحو الشعب العربي في وسط وجنوب العراق لكي تكون الانتفاضة عامة ومتناغمة.

ومن الأهمية استقاء الدروس من انتفاضة تونس ومصر، ففي كلا الحالتين يقصى من العملية، العناصر القديمة التي ساهمت في طغيان النظام السابق وكانوا جزءاً منه. إن التغيير الحقيقي يجب ان يشمل جميع الذين كانوا في مراكز صنع القرار في النظام البائد ومحاكمتهم.

في اعتقادي أن التغيير أمر لا مفر منه. كما ان مقتضيات تحقيق تطور الشعب الكوردي الحضاري يستوجب إنهاء حقبة الزعماء الكورد الكلاسيكيين (المسؤولين عن تعميم الفساد والتخلف الحضاري والاقتتال الداخلي وتسلب الحكم العائلي) كما ينبغي الحبطة الشديدة لتفادي الوقوع في فخ الدول الإقليمية والحفاظ على المكتسبات التي تحققت بفضل زوال نظام صدام حسين.